



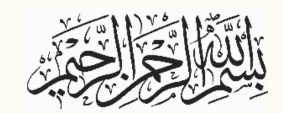
تَفْسِيرٌ مُحَرَّرٌ مُتَكَامِل

اختصره من تفسير الإمام ابن كثير

مُحَمَّدُ بنُ سُلَيْمَان المُهَنَّا

راجعه

د. نبيل بن نصَّار السندي



مقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبيِّنا محمَّد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فهذا تفسير سورة الكهف، اختصرتُهُ من تفسير الإمام ابن كثير، فجاء في نصف الأصل أو أقلَّ منه، مع اشتماله علىٰ عامَّة ما فيه من المباحث والفوائد ولله الحمد.

أدعو إخواني وأخواتي إلىٰ الاستفادة منه، فهو خلاصة حافلة بالعلم والإيمان، مناسبة للقراءة الفردية والجماعية، كما أدعوهم إلىٰ نشره عبر وسائل النشر المتنوعة، رجاء الأجر والفائدة.

محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا

لإرسال الملحوظات والاقتراحات:

00966505490525
Almohanna.m@gmail.com
@almohannam

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

تفسير سورة الكهف

وهي مكِّيَّة

ذِكْرُ ما ورد في فضلها، والعشرِ الآيات من أوَّلها وآخرها، وأنها عِصْمَةٌ من الدجال

روىٰ الإمام أحمد عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابَّةٌ، فجعلت تَنْفِر، فنظر فإذا ضبابةٌ - أو سحابةٌ - قد غَشِيَتْهُ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنَّها السكينةُ تنزَّلت عند القرآن، أو: تنزَّلت للقرآن». وأخرجاه في «الصحيحين»(١).

(١) أحمد (١٨٤٧٤)، والبخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥).

وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو: أَسَيْدُ بن الحُضَيْر، كما تقدَّم في تفسير البقرة.

وروىٰ الإمام أحمد عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حَفِظ عَشْرَ آياتٍ من أول سورة الكهف، عُصِمَ من الدجال». ورواه مسلم[(١)].

وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «مَن قَرَأ العشرَ الأواخرَ مِن سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال». رواه مسلم أيضًا[(٢)].

وروىٰ الإمام سعيد بن منصور في «سننه» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: من قرأ سورةَ

---

(١) أحمد (٢١٧١٢)، ومسلم (٨٠٩).

(٢) أحمد (٢٧٥١٦)، ومسلم (٨٠٩/ الطريق الثاني).

الكهف في يوم الجمعة، أضاءَ له مِن النُّور ما بينَه وبينَ البيتِ العتيق[1]. هكذا وقع موقوفًا.

وقد أخرجه الحاكم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورةَ الكهف في يوم الجمعة، أضاءَ له مِن النُّور ما بين الجُمُعتَين». ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه[2].

***

(١) «سنن سعيد بن منصور» (٦/ح١٣٦٨). ومن طريقه رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٢٠) وقال: «وهذا هو المحفوظ: موقوف».

(٢) «مستدرك الحاكم» (٢/ ٣٦٨). وقد تعقَّب الذهبي تصحيحه في «تلخيص المستدرك» فقال: فيه نعيم بن حماد وهو ذو مناكير.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ وفِّقْني

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

قد تقدَّم في أوَّل التفسير أنَّه تعالىٰ يحمَدُ نفسَه المقدَّسة عند فواتح الأمور وخواتيمها، فإنَّه

المحمودُ علىٰ كل حال، وله الحمدُ في الأولىٰ والآخرة؛ ولهذا حَمِد نفسه علىٰ إنزاله كتابَه العزيز علىٰ رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنَّه أعظمُ نعمةٍ أنعمها الله علىٰ أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلىٰ النور، حيث جعله كتابًا مستقيمًا لا اعوجاجَ فيه ولا زيغ، بل يهدي إلىٰ صراط مستقيم، بيِّنًا واضحًا جليًّا، نذيرًا للكافرين وبشيرًا للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ أي: لم يجعل فيه اعوجاجًا ولا زيغًا ولا ميلًا بل جعله معتدلًا مستقيمًا؛ ولهذا قال: ﴿قَيِّمٗا﴾ أي: مستقيمًا.

﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ أي: لمن خالفه وكذَّبه ولم يؤمن به، ينذره بأسًا شديدًا: عقوبةً عاجلةً في الدنيا وآجلةً في الآخرة ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ أي: من عند الله الذي لا يُعَذِّب عذابَه أحدٌ، ولا يوثِق وثاقَه أحد.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: يُبشِّر بهذا القرآن الذين صدَّقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾ أي: مثوبةً عند الله جميلةً.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾ في ثوابهم عند الله، وهو الجنَّة، أي خالدين فيه ﴿أَبَدٗا﴾ دائمًا لا زوالَ له ولا انقضاء.

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قولهم: نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ أي: ما لهم بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه من علم ﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ أي: أسلافهم.

﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةً﴾: نَصْبٌ علىٰ التمييز، تقديره: كبرتْ كلمتُهم هذه كلمةً.

وقيل: نَصْبٌ علىٰ التعجُّب، تقديره: أَعظِمْ بكلمتهم كلمةً! كما تقول: أكْرِمِ بزيد رجلًا!

قاله بعض البصريِّين. وقرأ ذلك بعض قُرَّاء مَكَّة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةٌ﴾[1] كما يقال: عَظُمَ قولُك، وكَبُرَ شأنُك.

والمعنى على قراءة الجمهور أظهر؛ فإنَّ هذا تبشيعٌ لمقالتهم واستعظامٌ لإفكهم؛ ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: ليس لها مستنَدٌ سوى قولهم، ولا دليلَ لهم عليها إلا كذبُهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

(١) وهي قراءة شاذة.

وقد ذكر محمدُ بنُ إسحاق سببَ نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدَّثني شيخٌ من أهل مصر قَدِمَ علينا منذ بضعٍ وأربعين سنةً، عن عكرمة، عن ابن عباسٍ قال: بَعَثَتْ قريشٌ النَضْرَ بنَ الحارث وعُقبةَ بنَ أبي مُعَيْط إلىٰ أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سَلُوْهم عن محمد، وصِفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأوَّل، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتىٰ قدما المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمرَه وبعضَ قوله، وقالا إنكم أهلُ التوراة، وقد جئناكم

لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم: سَلُوه عن ثلاثٍ نأمركم بِهِنّ، فإنْ أخبركم بِهِن فهو نبيٌّ مُرْسَل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّلٌ فَرَوا فيه رأيَكم: سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديثٌ عجيب. وسلوه عن رجل طوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نَبَؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبيٌّ فاتَّبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجلٌ مُتَقَوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النَضْر وعُقْبَة حتىٰ قدما علىٰ قريش، فقالا يا معشر قريش، قد جئناكم بفصلِ ما بينكم وبين محمد، قد أَمَرَنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبِرْنا؛ فسألوه عمَّا أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أُخبركم غدًا بما سألتم عنه» ولم يستثْنِ، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلةً، لا يُحْدِث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتىٰ أرجف أهلُ مكة وقالوا: وعَدَنَا محمد غدًا، واليوم خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها، لا يُخبرنا بشيء عما سألناه

عنه. وحتىٰ أحزنَ رسول الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهل مَكَّة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبتُه إيَّاه علىٰ حُزْنه عليهم، وخَبَرُ ما سألوه عنه من أمر الفِتْيَة والرجل الطوَّاف، وقول الله عز وجل في سورة الإسراء: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥][1].

---

(١) أخرجه الطبري (١٥/ ١٤٣) من طريق ابن إسحاق به.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مُسَلِّيًا رسوله ﷺ في حُزْنه علىٰ المشركين، لتركهم الإيمان وبُعْدهم عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾ [فاطر:٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[الحجر:٨٨]، وقال: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٣].

﴿بَـٰخِعٌ﴾: أي مُهْلِكٌ نفسَك بحُزنك عليهم؛ ولهذا قال ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ يقول: لا تُهْلِك نفسَكَ أسفًا.

قال قتادة: أي قَاتِلٌ نَفْسَكَ غضبًا وحزنًا عليهم. وقال مجاهد: جزعًا. والمعنىٰ متقارب، أي: لا تأسف عليهم، بل أبْلِغهم رسالة الله، فمن اهتدىٰ فلنفسه، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها، فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات.

ثم أخبر تعالىٰ أنَّه جعل الدنيا دارًا فانيةً مُزيَّنةً بزينة زائلة. وإنما جعلها دارَ اختبارٍ لا دارَ قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وعن أبي سعيدٍ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ الدنيا خَضِرةٌ حُلْوَة، وإنَّ الله مُستَخْلِفُكم فيها فناظرٌ ماذا تعملون، فاتَّقوا الدنيا، واتَّقوا النساء، فإنَّ أوَّل فتنةِ بني إسرائيل كانت في النساء»(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

ثم أخبر تعالىٰ بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أي: وإنا لمصيِّروها بعد الزينة إلىٰ الخراب والدمار، فنجعل كلَّ شيء عليها هالكًا.

﴿صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ : لا يُنْبِتُ ولا يُنْتَفع به، كما قال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ يقول: يَهْلِكُ كلُّ شيءٍ عليها ويَبِيد.

وقال مجاهد: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ بَلْقعًا. وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات.

وقال ابن زيد: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يعني الأرض، إنَّ ما عليها لفانٍ وبائدٌ، وإنَّ المرجع لإلىٰ الله؛ فلا تأسَ ولا يَحْزُنْكَ ما تسمع وترىٰ.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢ ﴾

هذا إخبارٌ عن قِصَّة أصحاب الكهف والرقيم على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بَسَطَها بعد ذلك.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أي: ليس

أمرهم عجيبًا في قدرتنا وسلطاننا، فإنَّ خلْق السموات والأرض، واختلافَ الليل والنهار، وتسخيرَ الشمس والقمر والكواكب، وغيرَ ذلك من الآيات العظيمة الدالَّة علىٰ قدرة الله تعالىٰ، وأنَّه علىٰ ما يشاء قادر ولا يُعجزه شيء= أعجبُ من أخبار أصحاب الكهف والرقيم. كما قال مجاهد: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجبُ من ذلك.

وعن ابن عباس: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: الذي آتيتُك من العلم والسُنَّة والكتاب أفضلُ من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرتُ من حُجَجي علىٰ العِبَاد أعجبُ من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

أما «الكهف» فهو: الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفِتية المذكورون.

وأما «الرقيم» فقال العوفي، عن ابن عباس: هو وادٍ قريبٌ من أيلَةَ[1].

وقال الضحاك: الكهف هو غار الوادي، والرقيم: اسم الوادي.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرقيم: الكتاب.

وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه علىٰ باب الكهف.

(١) مدينة أيلة تُعْرَف اليوم بـ«العَقَبة» بالأردن.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين:٩] .

وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» فعيل بمعنىٰ مرقوم، كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ يُخْبِرُ تعالىٰ عن أولئك الفِتية، الذين فرُّوا بدينهم من قومهم لئلا يَفتِنوهم عنه، فَهَرَبوا منهم فَلَجَأوا إلىٰ غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين

دخلوا سائلين من الله تعالىٰ رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ أي: هبْ لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ أي: وقدِّر لنا من أمرنا هذا رشدًا، أي: اجعل عاقبتنا رشدًا، كما جاء في الحديث: «وما قضيتَ لنا من قضاءٍ، فاجعَلْ عاقبتَه رشدًا»(١).

وقوله: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلىٰ الكهف، فناموا سنين كثيرة. ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ أي:

(١) أخرجه أحمد (٢٥١٣٧) والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٣٩) من حديث عائشة ضمن دعاءٍ علَّمه النبي ﷺ إياها.

من رَقْدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعامًا يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾ أي: المختلفين فيهم ﴿أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ قيل: عددًا وقيل: غايةً، فإن الأمدَ الغايةُ كقوله(1):

سَبْقَ الجَوَادِ إِذا اسْتَوْلَىٰ علىٰ الأَمَدِ

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ

(1) شطر بيت للنابغة، انظر «تفسير الطبري» ١٥/ ١٣٧.

مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾

من هاهنا شَرَعَ في بَسْطِ القصة وشَرْحِها، فَذَكرَ تعالىٰ أَنَّهم فتيةٌ -وهم الشباب- وهم أقبَلُ للحق وأهدىٰ للسبيل من الشيوخ الذين قد عَتَوا

وعَسَوا[١] في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابًا. وأما المشايخ من قريش، فعامَّتهم بَقُوا علىٰ دينهم، ولم يُسْلِم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالىٰ عن أصحاب الكهف أنَّهم كانوا فتية شبابًا.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾: استدلَّ بهذه الآية وأمثالها غيرُ واحد من الأئمَّة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلىٰ زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ كَمَا قَالَ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾

(١) «عَتَوا وعَسَوا» أي: كَبِروا.

[محمد:١٧] **وقال:** ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] **وقال** ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [الفتح: ٤] **إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالَّة علىٰ ذلك.**

وقد ذُكِرَ أَنَّهم كانوا علىٰ دين عيسىٰ ابن مريم عليه السلام. والله أعلم.

والظاهر أَنَّهم كانوا قبل مِلَّة النصرانيَّة بالكُلِّيَّة، فإنَّهم لو كانوا علىٰ دين النصرانيَّة، لما اعتنىٰ أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم. وقد تقدَّم عن ابن عباس: أن قريشًا بعثوا إلىٰ أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء

يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدلَّ هذا علىٰ أن هذا أمر محفوظ في كُتُب أهل الكتاب، وأنه مُتقدِّم علىٰ دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالىٰ: وصَبَّرناهم علىٰ مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقةِ ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنَّه قد ذكر غير واحد من المفسِّرين من السَلَف والخَلَف أنَّهم كانوا من أبناء ملوك الروم

وسادتهم، وأنهم خرجوا يومًا في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السَنَة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملكٌ جبَّارٌ عنيد يقال له: «دقيانوس»، وكان يأمر الناس بذلك ويحثُّهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلىٰ ما يصنع قومُهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها: لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد

منهم يتخلَّص من قومه، وينحاز منهم ويتبرَّز عنهم ناحية. فكان أول من جلس منهم وحدَه أحدهم، جلس تحت ظل شجرةٍ، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم علىٰ الإيمان.

كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقًا عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنودٌ مُجَنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما

تناكر منها اختلف»[١]. وأخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ[٢].

والناس يقولون: الجنسية عِلَّة الضَّم.

والغرض أنَّ كلَّ أحد منهم جعل يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفًا منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتىٰ قال أحدهم: تعلمون -والله يا قوم- أنَّه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا شيءٌ، فليُظْهر كلُّ واحدٍ منكم بأمره. فقال آخر: أمَّا أنا

---

(١) البخاري (٣٣٣٦).

(٢) مسلم (٢٦٣٨).

فإنِّي والله رأيتُ ما قومي عليه، فعرفتُ أنَّه باطل، وإنَّما الذي يستحقُّ أن يُعْبَد وحده ولا يُشْرَك به شيء هو الله الذي خلق كل شيءٍ: السماواتِ والأرضَ وما بينهما. وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك. وقال الآخر كذلك، حتىٰ توافقوا كلُّهم علىٰ كلمة واحدة، فصاروا يدًا واحدة وإخوانَ صدق، فاتَّخذوا لهم معبدًا يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومُهم، فوَشَوا بأمرهم إلىٰ مَلِكِهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق، ودَعَوه إلىٰ الله عز وجل؛

ولهذا أخبر تعالىٰ عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ﴾ أي: لا يقع منا هذا أبدًا؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلًا؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: باطِلًا وكَذِبًا وبهتانًا.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي: هَلَّا أقاموا علىٰ صِحَّة ما ذهبوا إليه دليلًا واضحًا صحيحًا؟!

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك.

فيُقال: إنَّ مَلِكَهُم لمَّا دعوه إلىٰ الإيمان بالله، أبىٰ عليهم، وتَهَدَّدهم وتوعَّدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجَّلهم لينظروا في أمرهم، لعلهم يراجعون دينهم الذي كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصَّلوا إلىٰ الهَرَب منه، والفرار بدينهم من الفتنة.

وهذا هو المشروع عند وقوع الفِتَن في الناس: أن يَفِرَّ العبدُ منهم خوفًا علىٰ دينه، كما جاء في الحديث: «يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنمًا

يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجبالِ ومواقع القَطْرِ[1]؛ يفِرُّ بدينه من الفتن»[2]. ففي هذه الحال تُشْرَعُ العُزْلة عن الناس، ولا تُشْرَعُ فيما عداها، لِما يفوت بها من ترك الجماعات والجُمَع.

فلمَّا وقع عزمُهم علىٰ الذهاب والهَرَب من قومهم، واختار الله تعالىٰ لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارِقُوهم أيضًا بأبدانكم ﴿ٱللَّهَ

(١) **شعف الجبال**: رؤوسها. **مواقع القطر**: مواضع نزول المطر.

(٢) أخرجه البخاري (١٥) من حديث أبي سعيد.

﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي: يبسط عليكم رحمةً يستركم بها من قومكم ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم﴾ أي الذي أنتم فيه ﴿مِّرۡفَقٗا﴾ أي: أمرًا ترتفقون به= فعند ذلك خرجوا هُرَّابًا إلىٰ الكهف فأَوَوا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتَطَلَّبهم المَلِك، فيقال: إنَّه لم يظفر بهم، وعَمَّىٰ الله عليه خبرهم. كما فعل بنبيِّه محمد ﷺ وصاحبه الصديق حين لجأ إلىٰ غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه مع أنَّهم يمرُّون عليه، وعندها قال النبيُّ ﷺ حين رأىٰ جَزَعَ الصدِّيق في قوله: يا رسول الله، لو أن

أحدهم نظر إلىٰ موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثُهما؟»[1] وقد قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٣) ومسلم (٢٣٨١) من حديث أبي بكر.

[التوبة:٤٠] فقِصَّةُ هذا الغار أشرفُ وأجلُّ وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف.

وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم. وقفوا علىٰ باب الغار الذي دخلوه، فقالوا: ما كُنَّا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم، فأمر الملكُ بردم بابه عليهم ليَهلِكوا مكانَهم، فَفُعِل ذلك.

وفي هذا نظر والله أعلم؛ فإنَّ الله تعالىٰ قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بُكْرةً وعَشيَّة، كما قال تعالىٰ:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾

وهذا دليل علىٰ أن باب هذا الكهف من نحو الشَّمال؛ لأنَّه تعالىٰ أخبر أنَّ الشمس إذا دخلَتْه عند طلوعها تَزَاور عنه ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: يتقلَّص الفيء يَمْنةً، كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تميل؛ وذلك أنَّها كلما

ارتفعت في الأفق تقلَّص شعاعها بارتفاعها حتىٰ لا يبقىٰ منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: تدخل إلىٰ غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدلَّ علىٰ صِحَّة ما قلناه. وهذا بيِّنٌ لمن تأمَّله وكان له علمٌ بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه: أنَّه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القِبْلة[1] لما دخل منها

(١) أي: من ناحية الجنوب، لأنها هي جهة القبلة من بلاد الروم حيث وقعت القصة.

شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يمينًا ولا شمالًا، ولو كان من جهة الغرب لما دخلتْه وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلىٰ الغروب. فتَعيَّن ما ذكرناه ولله الحمد.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾ تتركهم.

وقد أخبر الله تعالىٰ بذلك وأراد منا فَهْمَه وتدبُّره، ولم يُخْبِرنا بمكان هذا الكهف في أيِّ البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدةَ لنا فيه ولا قصدٌ شرعيٌّ. وقد تكلَّف بعض المفسِّرين فذكروا فيه

أقوالًا، والله أعلم بأي بلاد الله هو، ولو كان لنا فيه مصلحة دينيَّة لأرشدنا اللهُ ورسولُه إليه فقد قال رسول الله ﷺ: «ما تركتُ شيئًا يُقرِّبكم إلىٰ الجنَّة ويُباعدكم من النار، إلا وقد أعلَمْتُكم به»[(١)].

فأعلَمَنا الله تعالىٰ بصفته، ولم يُعلِمنا بمكانه، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم: تَزاور أي تميل ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه (المطالب العالية: ٩٢٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٩١) من حديث ابن مسعود بنحوه. قال الحافظ في «المطالب»: فيه انقطاع. وله شاهد عند الطبراني في «الكبير» (١٦٤٧) من حديث أبي ذر بنحوه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجاله رجال الصحيح، غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، وهو ثقة. وانظر: «الصحيحة» للألباني (١٨٠٣).

ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في متَّسَعٍ منه بحيث لا تَمَسُّهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم؛ قاله ابن عباس.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حيث أرشدهم تعالىٰ إلىٰ هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقىٰ أبدانُهم؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

ثم قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي: هو الذي أرشد هؤلاء

الفتية إلىٰ الهداية من بين قومهم، فإنَّه من هداه الله اهتدىٰ، ومن أضلَّه فلا هادي له.

﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨ ﴾

ذَكَرَ بعض أهل العلم أنَّهم لما ضرب الله علىٰ آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يُسرِع إليها البِلىٰ، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقىٰ لها؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ ﴾

وقد ذُكِر عن الذئب أنه ينام فيُطبق عينًا ويَفتح عينًا، ثم يَفتح هذه ويُطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر:

يَـنامُ بإِحْــــدَىٰ مُـقْــلتَيهِ ويَتَّقِــي
بأُخْرَىٰ الرَّزايا فَهْوَ يَقْظانُ نائِمُ

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ قال بعض السلف: يُقلَّبون في العام مرَّتين. قال ابن عباس: لو لم يُقَلَّبوا لأكلتهم الأرض.

وقوله: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير: الوصيد: الفِنَاء. وقال ابن عباس: بالباب.

والصحيح أنه بالفِناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة:٨] أي: مُطْبَقَة مُغْلَقَة. يقال: «وَصِيْد» و «أَصِيْد».

رَبَضَ كلبُهم علىٰ الباب كما جرت به عادة الكلاب، قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض ببابهم كأنَّه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلبٌ -كما ورد في «الصحيح»(١)- ولا صورةٌ ولا جُنُبٌ ولا كافر، كما ورد به الحديثُ الحَسَن(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٥) ومسلم (٢١٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦٣٢) وأبو داود (٢٢٧) والنسائي (٢٦١) وابن حبان =

وشملت كلبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابهم من النوم علىٰ تلك الحال. وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنَّه صار لهذا الكلب ذِكرٌ وخبرٌ وشأن.

وقد قيل: إنه كان كلبَ صيد لأحدهم، وهو الأشبه.

واختلفوا في لونه علىٰ أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هي مما يُنْهىٰ عنه، فإنَّ مستندها رجمٌ بالغيب.

= (١٢٠٥) من حديث علي مرفوعًا بلفظ: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورةٌ ولا كلبٌ ولا جُنُب». وأخرج أبو داود (٤١٨٠) من حديث عمَّار ابن ياسر مرفوعًا بلفظ: «ثلاثةٌ لا تَقْرَبُهم الملائكة: جِيفة الكافر، والمتضمِّخ بالخَلُوق، والجُنُب إلا أن يتوضأ».

وقوله تعالىٰ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي: أنَّه تعالىٰ ألقىٰ عليهم المهابة بحيث لا يقع نظرُ أحدٍ عليهم إلا هابهم؛ لِما أُلبسوا من المهابة والذُعر، لئلا يدنو منهم أحدٌ ولا تمسَّهم يدُ لامس، حتىٰ يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالىٰ فيهم، لِما له في ذلك من الحُجَّة والحكمة البالغة والرحمة الواسعة.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ

أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ

هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا

فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ

بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ

يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ

إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: وكما أرقدناهم، بعثناهم صحيحةً أبدانُهم وأشعارُهم وأبشارُهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئًا، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ أي: كم رقدتم؟ ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا

أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ كان دخولهم إلىٰ الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ أي: الله أعلم بأمركم، وكأَنَّه حصل لهم نوعُ تَرَدُّدٍ في كثرة نومهم، فالله أعلم.

ثم عدلوا إلىٰ الأهمِّ في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلىٰ الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾ أي: فِضَّتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها؛ فلهذا قالوا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ

أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي: مدينتكم التي خرجتم منها. والألِف واللام للعهد.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي: أطيب طعامًا، كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلىٰ:١٤] ومنه الزكاة التي تُطَيِّبُ المال وتُطَهِّره. وقيل: أكثر طعامًا، ومنه: «زَكَا الزرعُ» إذا كَثُر، قال الشاعر:

قَبَائِلُنا سَبْعٌ وَأَنْتُمْ ثَلاثَةٌ

وَلَلسَّبْعُ أَزْكَىٰ مِنْ ثَلاثٍ وَأطْيَبُ

والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنَّما هو الطيِّب الحلال، سواء كان قليلًا أو كثيرًا.

وقوله ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، أي: وَلْيَتَخَفَّ.

﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾ أي: ولا يُعْلِمَنَّ ﴿بِكُمۡ أَحَدًا﴾.

﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ أي: إن علموا بمكانكم﴿يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾يَعنُون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطَّلعوا علىٰ مكانهم، فلا يزالون يُعذِّبونهم

بأنواع العذاب إلىٰ أن يعيدوهم في مِلَّتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن واتَوهم علىٰ العَوْد في الدين فلا فلاح لهم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أطْلَعْنا عليهم الناسَ ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾.

ذَكَرَ غير واحد من السلف أنَّه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شكٌّ في البعث وفي أمر القيامة. فبعث الله أهل الكهف حُجَّةً ودلالةً وآيةً علىٰ ذلك.

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلىٰ المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه، تَنَكَّر وخرج يمشي في غير الجادَّة، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ المدينة، وهو يَظُنُّ أنَّه قريب العهد بها، وكان

الناس قد تبدَّلوا قَرْنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل، وأُمَّةً بعد أُمَّة، وتغيَّرت البلاد ومَن عليها، كما قال الشاعر:

أمــا الدّيارُ فَإنَّــها كَــديارهِـــم

وَأرَىٰ رجالَ الحَي غَيْرَ رجَالِهِ

فجَعَلَ لا يرىٰ شيئًا من معالم البلد التي يعرِفُها، ولا يَعْرِف أحدًا من أهلها، لا خواصَّها ولا عوامَّها، فجعل يتحيَّر في نفسه ويقول: لعل بي جنونًا أو مَسًّا، أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيءٌ من ذلك، وإنَّ عهدي بهذه البلدة عشيَّةَ

أمسِ علىٰ غير هذه الصفة! ثم قال: إنَّ تعجيل الخروج من هاهنا لأولىٰ لي.

ثم عمد إلىٰ رجل ممَّن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعامًا. فلمَّا رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضَرْبها، فدفعها إلىٰ جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعلَّ هذا قد وجد كنزًا. فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النفقة؟ لعلَّه وجدها من كنز. ومن أنت؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه المدينة وعهدي بها عشيةَ أمسِ وفيها دقيانوس! فنسبوه إلىٰ الجنون،

فحملوه إلىٰ وليِّ أمرهم، فسأله عن شأنه وعن أمره حتىٰ أخبرهم بأمره، وهو متحيِّر في حاله، وما هو فيه. فلمَّا أعلمهم بذلك قاموا معه إلىٰ الكهف: مُتَوَلِّي البلد وأهلُها، حتىٰ انتهىٰ بهم إلىٰ الكهف، فقال: دعوني حتىٰ أتقدَّمكم في الدخول لأُعْلِم أصحابي.

فيقال: إنِّهم دخلوا عليهم، ورأوهم وسلَّم عليهم الملِك واعتنقهم، وكان مُسْلِمًا فيما قيل، واسمه تيدوسيس، ففرحوا به وآنسوه بالكلام، ثم ودَّعوه وسلَّموا عليه، وعادوا إلىٰ مضاجعهم، وتوفَّاهم الله عز وجل. فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطْلَعْنا عليهم أهلَ ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: في أمر القيامة، فَمِنْ مُثْبِتٍ لها ومِنْ مُنْكِرٍ، فجعل الله ظهورَهم علىٰ أصحاب الكهف حُجَّةً لهم وعليهم ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي: سُدُّوا عليهم باب كهفهم، وذَرُوهم علىٰ حالهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. حكىٰ ابن جرير في القائلين ذلك قولين:

أحدهما: أَنَّهم المسلمون منهم.

والثاني: أَنَّهم أهل الشرك منهم.

والظاهر أنَّ الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» يُحذِّر ما فعلوا(١).

وقد رُوينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه لمَّا وُجد قبرُ دانيال في زمانه بالعراق، أمر

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥) ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وابن عبَّاس دون ذكر «وصالحيهم». وجاء ذلك عند مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بمعناه.

أن يُخْفىٰ عن الناس، وأن تُدْفن تلك الرُّقعة التي وجدوها عنده فيها شيءٌ من الملاحم وغيرها[١].

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾

مخبرًا عن اختلاف الناس في عِدَّة أصحاب الكهف، فحكىٰ ثلاثة أقوال، فدلَّ علىٰ أنه لا قائلَ برابع، ولما ضَعَّف القولين الأولين بقوله: ﴿رَجۡمَۢا

(١) أسنده البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٣٨١-٣٨٢).

بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي: قولًا بلا علم، كمن يرمي إلىٰ مكان لا يَعْرفه، فإنَّه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبِلا قصد، ثم حكىٰ الثالث وسكت عليه أو قرَّره بقوله: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ فدلَّ علىٰ صِحَّته، وأنَّه هو الواقع في نفس الأمر.

وقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشادٌ إلىٰ أنَّ الأحسن في مثل هذا المقام ردُّ العِلْم إلىٰ الله تعالىٰ، إذ لا احتياج إلىٰ الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكنْ إذا أَطْلَعَنا علىٰ أمر قُلْنا به، وإلَّا وَقَفْنَا.

وقوله: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ أي: قليلٌ من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنىٰ الله عز وجل، كانوا سبعة.

وكذا رواه ابن جريج عن عطاء الخراساني عنه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن بشَّار حدثنا عبد الرحمن، حدَّثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة.

فهذه أسانيد صحيحة إلىٰ ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدَّمناه.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: سهلًا هينًا؛ فإنَّ الأمر في معرفة ذلك لا يترتَّب عليه كبيرُ فائدة.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فإنَّهم لا عِلْم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجمًا بالغيب، أي من غير استناد إلىٰ كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمَّد بالحقِّ الذي لا شكَّ فيه ولا مِرْية، فهو المقدَّم الحاكم علىٰ كل ما تَقَدَّمه من الكُتُب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

هذا إرشادٌ من الله لرسوله الله صلوات الله وسلامه عليه، إلىٰ الأدب فيما إذا عزم علىٰ شيء ليفعله في المستقبل: أن يَرُدَّ ذلك إلىٰ مشيئة الله عزَّ وجل علَّام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفنَّ الليلةَ علىٰ سبعين امرأةً -وفي رواية تسعين امرأةً، وفي رواية: مائةَ امرأةٍ- تَلِدُ كلُّ امرأةٍ منهنَّ غلامًا يُقاتل في سبيل الله، فقيل له -وفي رواية: فقال له المَلَك- قل:

إن شاء الله. فلم يَقُل. فطاف بهنَّ فلم تَلِدْ منهنَّ إلا امرأةٌ واحدةٌ نصفَ إنسان» قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال: «إن شاء الله» لم يَحْنَث، وكان دَرَكًا لحاجته» وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون»(١).

وقوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه إذا نسيتَ الاستثناء، فاستثنِ عند ذِكْرِكَ له؛ قاله أبو العالية، والحسن البصري. وقال ابن عبَّاسٍ في الرجل يحلف: له أن يستثني ولو إلىٰ سَنَة، وكان يقول: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك.

---

(١) البخاري (٢٨١٩، ٣٤٢٤، ٥٢٤٢، ٦٦٣٩، ٦٧٢٠) ومسلم (١٦٥٤).

ومعنىٰ قول ابن عباس: «أنه يستثني ولو بعد سنة» أي: إذا نسي أن يقول في حلفه أو كلامه «إن شاء الله» وذكر ولو بعد سنة، فالسُّنَّة له أن يقول ذلك، ليكون آتيًا بسُنَّة الاستثناء، حتىٰ ولو كان بعد الحنث، لا أن يكون ذلك رافعًا لحِنْث اليمين ومُسْقِطًا للكفارة. قال ذلك ابن جرير.

وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله، هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

ويُحْتَمَل في الآية وجهٌ آخر، وهو أن يكون الله عزَّ وجلَّ قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلىٰ

ذكر الله تعالىٰ؛ لأنَّ النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتىٰ موسىٰ: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ وذِكْرُ الله تعالىٰ يَطْرُد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذِكْرُ الله سببٌ للذِكْر؛ ولهذا قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وقوله: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ أي: إذا سُئِلتَ عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجَّه إليه في أن يوفِّقك للصواب والرشد في ذلك. وقيل في تفسيره غير ذلك، والله أعلم.

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦ ﴾

هذا خَبَرٌ من الله تعالىٰ لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلىٰ أن بعثهم وأعثرَ عليهم أهلَ ذلك الزمان، وأنَّه كان مقداره ثلاثمائة سنةٍ وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنةٍ بالشمسية، فإنَّ تَفاوتَ ما بين كل مائة سنة بالقمريَّة إلىٰ

الشمسيَّة ثلاثُ سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة:

﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ أي: إذا سُئلتَ عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله عزَّ وجلَّ فلا تتقدَّم فيه بشيء، بل قُل في مثل هذا: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلَّا هو أو مَنْ أطْلَعَهُ الله عليه مِن خَلْقِه.

وهذا الذي قلناه، عليه غيرُ واحدٍ من علماء التفسير كمجاهد، وغيرُ واحدٍ من السَلَف والخَلَف.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ هذا قول أهل الكتاب، وقد ردَّه الله تعالىٰ بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾.

وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإنَّ الذي بأيدي أهل الكتاب أنَّهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكىٰ قولهم لما قال: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾، والظاهر

من الآية إنما هو إخبار من الله، لا حكاية عنهم.

وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: إنه لَبصيرٌ بهم سميعٌ لهم.

قال ابن جرير: وذلك في معنىٰ المبالغة في المدح، كأنَّه قيل: ما أبصَرَه وأسمَعَه! وتأويل الكلام: ما أبصرَ اللهَ لكل موجود، وأسمعَه لكل مسموع، لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء.

وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: أنَّه تعالىٰ هو الذي له الخلق

والأمر، الذي لا معقِّب لحُكْمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالىٰ وتقدَّس.

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله عليه الصلاة والسلام بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلىٰ الناس: ﴿ وَٱتۡلُ

مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾

أي: لا مُغيِّر لها ولا مُحرِّف ولا مُؤوِّل.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ قال مجاهد ﴿مُلۡتَحَدٗا﴾: ملجأ.

قال ابن جرير: يقول إن أنت يا محمد لم تتلُ ما أوحي إليك من كتاب ربك، فإنَّه لا ملجأ لك من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾

[القصص:٨٥] أي: سائلُك عمَّا فَرَضَ عليك من إبلاغ الرسالة.

وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهلِّلونه، ويحمدونه ويسبِّحونه ويكبِّرونه، ويسألونه بُكْرة وعَشِيًا من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخبَّاب وابن مسعود، ويُفْرِد أولئك

بمجلس علىٰ حِدَة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢] وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

وروىٰ مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقَّاص قال: كُنَّا مع النبي ﷺ ستَّة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرُد هؤلاء لا يجترؤون علينا! قال: وكنتُ أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال ورجلان نسيتُ اسميهما. فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث

نفسَه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢] [١].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال ابن عبَّاس: ولا تجاوِزهم إلىٰ غيرهم: يعني: تطلب بدلهم أصحابَ الشرف والثروة.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: شُغِل عن الدين وعبادة ربِّه بالدنيا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾أي: أعماله وأفعاله سَفَهٌ وتفريط

---

(١) مسلم (٢٤١٣).

وضياع، ولا تكن مطيعًا له ولا مُحِبًّا لطريقته، ولا تغبِطْه بما هو فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالىٰ لرسوله محمَّد ﷺ: وقل يا محمَّد للناس: هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحقُّ الذي لا مِرْية فيه ولا شك ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ أي: أرْصدنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ أي: سُوْرها.

وقوله: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ قال ابن عباس: «المُهْل»: ماءٌ غليظ. وقال مجاهد: هو

كالدم والقيح. وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهىٰ حَرُّه: وقال آخرون: هو كل شيء أذيب.

وقال قتادة: أذاب ابنُ مسعود شيئًا من الذهب في أخدود، فلما انماع وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل.

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المُهْل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلَّها، فهو أسود منتن غليظ حار؛ ولهذا قال: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ أي: من حَرِّه، إذا أراد الكافر أن

يشربه وقَرَّبه من وجهه، شواه حتىٰ يسقط جلد وجهه فيه.

ولهذا قال تعالىٰ بعد وصفه هذا الشرابَ بهذه الصفات الذميمة القبيحة: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾أي: بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد:١٥] وقال تعالىٰ: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ [الغاشية:٥] أي: حارَّة، كما قال: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن:٤٤] .

﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ أي: وساءت النار منزلًا ومَقِيلًا ومجتمعًا وموضعًا للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان:٦٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾

لما ذَكَرَ تعالىٰ حال الأشقياء، ثنَّىٰ بذِكْر السعداء، الذين آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ ﴾ ، والعَدْن: الإقامة.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: من تحت غُرَفِهم ومنازلهم.

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ وقال في المكان الآخر: ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج:٢٣] وفصَّله هاهنا فقال: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ

﴿ وَإِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ فالسُّندس: ثيابٌ رِفاعٌ رِقاقٌ كالقُمصان وما جرىٰ مجراها، وأما الإستبرق: فغليظ الدِّيباج وفيه بريق.

وقوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ ﴾ الاتكاء قيل: الاضطجاع وقيل التربُّع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد هاهنا .

ومنه الحديث الذي في الصحيح: «أما أنا فلا آكل متكئًا» فيه القولان(١).

(١) أخرجه البخاري (٥٣٩٨) والترمذي (١٨٣٠) من حديث أبي جُحيفة. واللفظ للترمذي.

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحَجَلة [1]، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بـ«الباشخاناه»، والله أعلم.

وقوله: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ أي: نِعْمَتِ الجنَّةُ ثوابًا على أعمالهم ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ أي: حَسُنتْ منزلًا ومقيلاً ومقامًا، كما قال في النار: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾. وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾[الفرقان:٦٦].

(١) الحجلة: موضع كالقبة يُتّخذ للعروس، يُزيَّن بالستور والأسرَّة.

ثمَّ ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٧٦،٧٥].

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔاۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ

أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

يقول الله تعالىٰ بعد ذِكْرِ المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلًا برجلين، جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل المُحدِقة في جَنَبَاتهما، وفي خلالهما الزروع، وكلٌّ من الأشجار والزروع مُثمِرٌ مُقبِلٌ في غاية الجودة؛ ولهذا قال: ﴿كِلْتَا

ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ أي: خرَّجت ثمرها ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئًا ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ أي: والأنهار تتخرَّق فيهما هاهنا وهاهنا.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ﴾ قيل: المراد به: المال، وقيل: الثمار وهو أظهر هاهنا. ﴿فَقَالَ﴾ أي صاحب هاتين الجنَّتين ﴿لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأَّس: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ﴾ أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا.

قال قتادة: تلك -والله- أُمنيةُ الفاجر: كثرةُ المال وعِزَّةُ النَفَر.

وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: بكفره وتمرُّدِه وتكبُّره وتجبُّره وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وذلك اغترارٌ منه، لما رأىٰ فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطَّردة في جوانبها وأرجائها، ظنَّ أنها لا تفنىٰ ولا تفرغ ولا تهلِك ولا تَتْلَف، وذلك لقلَّة عقله، وضعفِ يقينه بالله، وإعجابِه بالحياة الدنيا وزينتها، وكُفْره بالآخرة.

ولهذا قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي: كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: ولئن كان معادٌ ورجعةٌ وَمَرَدٌّ إلىٰ الله، ليكونَنَّ لي هناك أحسن من هذا لأني مَحْظيٌّ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم:

٧٧] أي: في الدار الآخرة، تألَّىٰ علىٰ الله عزَّ وجل(١).

وكان سبب نزول هذه الآية في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالىٰ، وبه الثقة.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠

(١) «تألَّىٰ علىٰ الله» أي: أقسم علىٰ الله، وذلك في قوله: ﴿ لَأُوتَيَنَّ ﴾ فاللام موطئة للقسم.

أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عمَّا أجابه صاحبه المؤمن، واعظًا له وزاجرًا عمَّا هو فيه من الكفر بالله والاغترار: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربِّه، الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من

سلالة من ماء مهين، كما قال تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] أي: كيف تجحَدُون ربّكم، ودلالته عليكم ظاهرة جليَّة، كلُّ أحد يعلمها من نفسه، فإنَّه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنَّه كان معدومًا ثم وُجِد، وليس وجوده من نفسه، ولا مستندًا إلىٰ شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته، فعُلِم إسناد إيجاده إلىٰ خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء؛ ولذا قال: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله

بالربوبية والوحدانية ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾ هذا تحضيضٌ وحثٌّ علىٰ ذلك، أي: هلَّا إذ أعجبَتْك حين دخلتَها ونظرتَ إليها حمدتَ الله علىٰ ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيءٌ من حاله أو ولده أو ماله،

فليقل: «ما شاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إلا بِالله» وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة.

وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسىٰ أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلُّكَ علىٰ كنزٍ من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا﴾ أي: علىٰ جنَّتك في الدنيا التي ظننتَ أنَّها لا تَبِيدُ ولا تفنىٰ

(١) أخرجه البخاري (٤٢٠٥) ومسلم (٢٧٠٤).

﴿حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس والضحَّاك وقتادة: أي عذابًا من السماء.

والظاهر أنَّه مطرٌ عظيمٌ مُزعِج، يَقْلَع زرعَها وأشجارَها؛ ولهذا قال: ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾ أي: بَلْقعًا ترابًا أملس، لا يثبُت فيه قَدَم.

وقوله: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾أي: غائرًا في الأرض، وهو ضِدُّ النابع الذي يُطْلَب من وجه الأرض، فالغائر يُطْلَب من أسفلِها كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ [الملك:٣٠] أي: جارٍ وسائح. وقال

هاهنا: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾

والغور: مصدر بمعنىٰ غائر، وهو أبلغ، كما قال الشاعر:

تَظَلُّ جِيَادُهُ نَوْحًا عَلَيهِ

تُقَلِّدُهُ أَعِنَّتَهَا صُفُوفا

بمعنىٰ نائحات عليه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ

مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بثماره، أو بأمواله علىٰ القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يَحْذَر، ممَّا خَوَّفه به المؤمن من إرسال الحُسبان علىٰ جنَّته، التي اغترَّ بها وألهَتْه عن الله عزَّ وجلَّ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾قال قتادة: يُصفِّق كفَّيه متأسِّفًا متلهِّفًا علىٰ الأموال التي أذهبها عليها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

﴿ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ ﴾أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعزَّ، ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

اختلف القُرَّاء هاهنا، فمنهم من يقف علىٰ قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ ﴾ أي: في ذلك الموطن الذي حلَّ به عذاب الله، فلا مُنْقِذ منه. ويبتدئ بقوله ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ﴾.

ومنهم من يقف علىٰ: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ ويبتدئ بقوله: ﴿ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ﴾.

ثم اختلفوا في قراءة ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنىٰ: هنالك الموالاة لله، أي: هنالك كلُّ أحدٍ من مؤمنٍ أو كافرٍ يرجع إلىٰ الله وإلىٰ موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ [غافر:٨٤] ، وكقوله إخبارًا عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٩٠،٩١].

ومنهم من كسر الواو ﴿الوِلايَةُ﴾ أي: هنالك الحُكْمُ لله الحق.

ثم منهم من رفع ﴿الحق﴾ علىٰ أنه نعتٌ للولاية، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾[الفرقان:٢٦].

ومنهم من خفض القاف، علىٰ أنه نعتٌ لله عز وجل، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاءً ﴿وَخَيْرٌ

عُقْبًا﴾ أي: الأعمال التي تكون لله عزَّ وجلَّ، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلُّها خير.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ يا محمَّد للناس ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ

﴾أي: ما فيها من الحَبّ، فشبَّ وحَسُن، وعلاه الزهر والنَّور والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا﴾ يابسًا ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي: تُفرِّقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ أي: هو قادرٌ علىٰ هذه الحال وهذه الحال.

وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا

وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ [يونس:٢٤] **وقال في سورة الزمر:** ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٢١] **وقال في سورة الحديد:** ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد:٢٠].

وقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥] أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خيرٌ لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقةِ المُفْرِطة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ

أَمَلًا ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جُبَير وغير واحد من السلف: «الباقِيَاتُ الصَّالِحَات: الصلوات الخمس» .

وقال عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جُبَير عن ابن عباس: «البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

وسُئِلَ أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عن: الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد

لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. رواه الإمام أحمد[1].

وقال محمد بن عَجْلان، عن عُمارة قال: سألني سعيد بن المسيب عن الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ؟ فقلت: الصلاة والصيام. قال لم تُصِب. فقلت: الزكاة والحج. فقال: لم تُصِب، ولكنهنَّ الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) «مسند أحمد» (٥١٣). قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير الحارث مولىٰ عثمان، وهو ثقة.

﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩ ﴾

يخبر تعالىٰ عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العِظام، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ١٠٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴾ [الطور:

١٠،٩] أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨] ، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[القارعة:٥] ، وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥- ١٠٧] يقول تعالىٰ: إنه تذهب الجبال، وتتساوىٰ المهاد، وتبقىٰ الأرض﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: سطحًا مستويًا لا عوج فيه ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ أي: لا وادي ولا جبَل؛ ولهذا قال تعالىٰ:

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ أي: بادية ظاهرة، ليس فيها مَعْلَم لأحد ولا مكان يواري أحدًا، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفىٰ عليه منهم خافية.

وقوله: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ أي: وجمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحدًا، لا صغيرًا ولا كبيرًا، كما قال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة:٤٩،٥٠] وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود:١٠٣].

وقوله: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ يَحْتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفًا واحدًا، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾[النبأ:٣٨] ويَحتمل أنهم يقومون صفوفًا صفوفًا، كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] .

وقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ هذا تقريعٌ للمنكِرين للمعاد، وتوبيخٌ لهم علىٰ رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال مخاطبًا لهم: ﴿بَلْ

زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي: ما كان ظنُّكم أنَّ هذا واقعٌ بكم، ولا أنَّ هذا كائن.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾أي: يا حسرتنا وويلنا علىٰ ما فرَّطنا في أعمارنا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي: لا يترك ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا

عملاً وإن صَغُر﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ أي: ضَبَطَها وحَفِظَها.

وروىٰ الطبراني عن سعد بن جُنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حُنَيْن، نزلنا قَفْرًا من الأرض، ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا، من وَجَد عُودًا فليأت به، ومن وجد حطبًا أو شيئًا فليأت به». قال: فما كان إلا ساعة حتىٰ جعلناه رُكامًا، فقال النبي ﷺ: «أترون هذا؟ فكذلك تُجْمَع الذنوب علىٰ الرجل منكم

كما جَمَعْتُم هذا، فليتق اللهَ رجلٌ ولا يُذنب صغيرةً ولا كبيرةً، فإنها مُحْصَاةٌ عليه»[1].

وقوله: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ أي: من خيرٍ أو شرٍّ كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ [آل عمران:٣٠] وقال تعالىٰ: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣] وقال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩] أي: تظهر المخبَّآت والضمائر.

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ٥٢)، وفي إسناده لين.

وقوله: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا، ولا يظلم أحدًا من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم، ويُعذِّب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفَّار وأصحاب المعاصي، ثم ينجّىٰ أصحابُ المعاصي ويُخلَّد فيها الكافرون. وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]. وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] والآيات في هذا كثيرة.

وعن جابر بن عبد الله قال: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ، فاشتريت بعيرًا ثم شددت عليه رَحْلي، فسِرتُ عليه شهرًا، حتىٰ قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس فقلت للبوَّاب: قل له: جابر علىٰ الباب. فقال: ابن عبد الله؟ فقلت: نعم. فخرج يطأ ثوبه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنَّك سمعتَه من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسَمَعه فقال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «يَحشُر اللهُ عز وجل الناسَ يوم القيامة عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا -قلت: وما بُهمًا؟ قال: ليس معهم شيء- ثمَّ يناديهم بصوتٍ يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملِك، أنا الديَّان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌّ، حتىٰ أقصَّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنَّة، وله عند رجل من أهل النار حقٌّ، حتىٰ أقصَّه منه، حتىٰ اللطمة!» قال: قلنا: كيف،

وإنما نأتي الله عز وجل حُفاةً عُراةً غُرْلًا بُهْمًا؟

قال: «بالحسنات والسيئات» رواه أحمد[1].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالىٰ منبِّهًا بني آدم علىٰ عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قَبْلهم، ومقرِّعًا لمن اتَّبعه منهم

(١) «مسند أحمد» (١٦٠٤٢)، ورواه أيضًا البخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٠) والحاكم (٢/ ٤٣٧-٤٣٨) وقال «صحيح الإسناد».وقد علَّق البخاري طرفًا منه مجزومًا به في «صحيحه».

وخالف خالقه ومولاه الذي أنشأه وابتداه، وبألطافه رَزَقه وغذاه.

ثم بعد هذا كلِّه والىٰ إبليس وعادىٰ الله، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾أي: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٨- ٢٩].

وقوله ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ فإنَّ إبليس خُلِق من مارج من نار، وأصلُ خلقِ

الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خُلِقت الملائكة من نور، وخُلِق إبليس من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وصف لكم»(١).

فعند الحاجة نَضَحَ كلُّ وعاءٍ بما فيه، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبَّه بهم، وتعبَّد وتنسَّك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصىٰ بالمخالفة.

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٩٦)، وفيه «الجانُّ» بدل «إبليس».

ونبَّه تعالىٰ هاهنا علىٰ أنه ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي: إنه خُلِق من نار، كما قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنَّه لأصلُ الجِنِّ، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح.

وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنْقل ليُنْظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يُقْطع

بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنْيَةٌ عن كل ما عداه من الأخبار المتقدِّمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وُضِعَ فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحُفَّاظ المتقنين الذين يَنْفُون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمَّة والعلماء، والسادة الأتقياء والأبرار والنجباء، من الجهابذة النُقَّاد، والحُفَّاظ الجياد، الذين دوَّنوا الحديث وحرَّروه، وبيَّنوا صحيحه من حسنه من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضَّاعين

والكذَّابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانةً للجناب النبوي والمقام المحمدي، خاتم الرسل وسيد البشر عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات، أن يُنْسَب إليه كذب، أو يُحَدَّث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ أي: فخرج عن طاعة الله؛ فإن الفسق هو الخروج، يقال فَسَقت الرُّطَبة: إذا خرجت من أكمامها. وفسقت الفأرة من جُحْرها: إذا خرجت منه للعَيْث والفساد.

ثم قال تعالىٰ مقرِّعًا وموبِّخًا لمن اتَّبعه وأطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ أي: أفتتَّخذونه بدلاً عنِّي؟ ولهذا قال: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾.

وهذا المقام كقوله بعد ذِكرِ القيامة وأهوالها ومصير كلٍّ من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩-٦٢].

﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيدٌ أمثالكم، لا يملكون شيئًا، ولا أشهدتهم خلقي للسماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالىٰ: أنا المستقلُّ بخلق الأشياء كلِّها، ومدبِّرُها ومقدِّرُها وَحْدي، ليس معي في ذلك شريكٌ ولا وزير، ولا مشيرٌ ولا نظير، كما قال: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ

ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٢ - ٢٣] ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ **قال مالك: أعوانًا.**

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عمَّا يُخاطِب به المشركين يوم القيامة علىٰ رؤوس الأشهاد تقريعًا لهم وتوبيخًا:

﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ أي: في دار الدنيا، ادعوهم اليوم، ينقذونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُا۟ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] .

وقوله: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ **كما قال:**

﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤]، **وقال** ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ [الأحقاف: ٥- ٦] ، **وقال:**

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢﴾

[مريم: ٨١،٨٢] .

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال ابن عباس وقتادة وغير واحد: مَهْلكًا.

وقال مجاهد[1]: ﴿مَّوْبِقًا﴾ واديًا في جهنم.

والظاهر من السياق هاهنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون واديًا في جهنم أو غيره، إلا أنَّ الله تعالىٰ أخبر أنَّه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلىٰ آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنَّه يُفرَّق بينهم وبينها في الآخرة، فلا

(١) في الأصل: قتادة، والظاهر أنه سبق قلم من الإمام رحمه الله. وهذا القول رواه الطبري وغيره عن مجاهد.

خلاص لأحد من الفريقين إلىٰ الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

وأما إن جُعِل الضمير في قوله: ﴿بَيۡنَهُم﴾ عائدًا إلىٰ المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو: إنَّه يُفرَّق به بين أهل الهدىٰ والضلالة، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ

﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

وقوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾أي: إنَّهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تُقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك(١)، فإذا رأىٰ المجرمون النار، تحقَّقوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهمِّ

(١) كما في حديث ابن مسعود عند مسلم (٢٨٤٢).

والحزن لهم، فإنَّ توقُّعَ العذابِ والخوفَ منه قبل وقوعه عذابٌ ناجز.

﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولابدَّ لهم منها.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾

يقول تعالىٰ: ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن، ووضَّحنا لهم الأمور، وفصَّلناها، كيلا يَضِلُّوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدىٰ. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، فالإنسان كثير

المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلَّا مَن هدىٰ الله وبصَّره لطريق النجاة.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ طَرَقَه وفاطمةَ بنتَ رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يا رسول الله، إنَّما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بَعَثنا. فانصرف النبيُّ حين قلتُ ذلك، ولم يَرْجع إليَّ شيئًا، ثم سمعتُه وهو مولٍّ يضرب فخذَه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴾ أخرجاه في الصحيحين[1].

---

(١) البخاري (١١٢٧) ومسلم (٧٧٥).

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾

يُخْبر تعالىٰ عن تمرُّد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البيِّن الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والآثار والدلالات الواضحات، وأنَّه ما منعهم من اتِّباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وُعِدوا به

عِيانًا، كما قال أولئك لنبيِّهم: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وقالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[الحجر: ٦،٧] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخْذِهم عن آخرهم ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ أي: يرونه عِيانًا مُواجهةً ومقابلةً.

ثم قال: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ أي: مُبشِّرين مَن صدَّقهم وآمن بهم، ومنذرين مَنْ كذَّبهم وخالفهم.

ثم أخبر عن الكُفَّار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ﴾ أي: ليُضْعِفوا به ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ أي: اتَّخذوا الحُجَجَ والبراهين وخوارق العادات التي بُعِثَ بها الرسل وما أنذروهم وخوَّفوهم به من العذاب ﴿هُزُوٗا﴾ أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشدُّ التكذيب.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ

وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾

يقول تعالىٰ: وأيُّ عباد الله أظلم ممَّن ذُكِّرَ بآيات الله فأعرض عنها، أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يُصْغِ لها، ولا ألقىٰ إليها بالًا ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾ أي: من الأعمال السيئة والأفعال

القبيحة، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وغشاوة، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صَمَمٌ معنويٌ عن الرشاد، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: ربك -يا محمَّد- غفور ذو رحمة واسعة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥] وقال: ﴿وَإِنَّ

رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [فاطر:٤٥] والآيات في هذا كثيرة.

ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدىٰ بعضهم من الغَيِّ إلىٰ الرشاد، ومن استمرَّ منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كلُّ ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ أي: ليس لهم عنه محيدٌ ولا محيصٌ ولا مَعْدِل.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أي: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم

بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي: جعلناه إلىٰ مُدَّة معلومة ووقت معلوم مُعيَّن، لا يزيد ولا ينقص، أي: وكذلك أنتم أيُّها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذَّبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعزَّ علينا منهم، فخافوا عذابي ونُذُر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا

مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾

سببُ قول موسىٰ عليه السلام لفتاه –وهو يُوشَع بن نُون– هذا الكلام: أنه ذُكِرَ له أن عبدًا من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يُحِطْ به موسىٰ، فأحبَّ الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ

ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أي لا أزال سائرًا حتىٰ أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال الفرزدق:

فَمَا بَرِحُوا حَتَّىٰ تَهَادَتْ نسَاؤهُم

بِبَطْحَاء ذي قارٍ عِيابَ اللَّطَائمِ

قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب.

وقال محمد بن كعب القُرَظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصىٰ بلاد المغرب، فالله أعلم.

وقوله: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أي: ولو أنِّي أسير حُقُبًا من الزمان.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنَّه كان قد أُمِرَ بِحَمْلِ حوت مملوح معه، وقيل له: متىٰ فَقَدْتَ الحوت فهو ثَمَّة. فسارا حتَّىٰ بلغا مجمع البحرين؛ وهناك عينٌ يقال لها «عين الحياة» فناما هنالك، وأصاب الحوتَ من رشاش ذلك الماء فاضطرب وكان في مِكْتَل[1] مع يوشع عليه السلام، وطَفَرَ من المَكْتل إلىٰ البحر، فاستيقظ يُوشَع عليه السلام، وسقط

(١) المِكْتَل هو الزَّنبيل.

الحوت في البحر وجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده؛ ولهذا قال: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: مثل السَرَب في الأرض.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: المكان الذي نسيا الحوت فيه، ونُسِبَ النسيان إليهما وإن كان يُوشَعُ هو الذي نسيه، كقوله تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] وإنما يخرج من المالح في أحد القولين.

فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه مَرْحَلَةً ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن

سَفَرِنَا هَٰذَا ﴾أي: الذي جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾يعني: تعبًا ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ ﴾ أي: طريقه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾أي: هذا الذي نطلب ﴿فَٱرْتَدَّا ﴾أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ أي: طريقهما ﴿قَصَصًا ﴾ أي: يَقُصَّان أثرَ مشيِهما، ويَقْفُوان أثرهما.

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخضر عليه

السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

روىٰ البخاريُّ عن سعيد بن جبير قال: قلتُ لابن عبَّاس: إن نوفًا البِكالِيَّ يزعم أنَّ موسىٰ صاحب الخضر ليس هو موسىٰ صاحب بني إسرائيل. قال ابن عبَّاس: كذب عَدُوُّ الله، حدَّثنا أُبيُ بنُ كعب رضي الله عنه، أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسىٰ قام خطيبًا في بني إسرائيل فَسُئل: أيُّ الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأوحىٰ الله إليه: إنَّ لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسىٰ: يا

رب، وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا، تجعله بمِكْتَلٍ، فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثَمَّ.

فأخذ حوتًا فجعله بمِكْتَل ثمَّ انطلق وانطلق معه بفتاه يُوشَع بن نون عليهما السلام، حتىٰ إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه، فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سَرَبا، وأمسك الله عن الحوت جِريةَ الماء، فصار عليه مثلُ الطاق.

فلما استيقظ نسي صاحبُه أن يُخبره بالحوت، فانطلقا بقيةَ يومهما وليلتهما، حتىٰ إذا كان من الغد قال موسىٰ لفتاه: ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ

لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ولم يجد موسىٰ النَّصَب حتىٰ جاوَزَا المكان الذي أمره الله به.

قال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾قال: «فكان للحوت سربًا ولموسىٰ وفتاه عجبًا» فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ قال: «فرجعا يَقُصَّان أثرهما حتىٰ انتهيا إلىٰ الصخرة، فإذا رجلٌ مُسَجًّىٰ بثوب، فسلَّم عليه موسىٰ، فقال الخَضِر: وَأَنَّىٰ بأرضك السلام! قال: أنا موسىٰ. قال: موسىٰ بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما

عُلِّمتَ رُشْدًا ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ يا موسىٰ إني علىٰ علم من علم الله علَّمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت علىٰ علم من علم الله عَلَّمَكَهُ الله لا أعلمه. فقال موسىٰ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ قال له **الخضر**: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ فانطلقا يمشيان علىٰ ساحل البحر، فمرَّت سفينةٌ فكلَّموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نَول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قَلَع لوحًا من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسىٰ: قد حملونا

بغير نَولٍ[1]، فعمدتَ إلىٰ سفينتهم فخرقتَها لتُغرِق أهلها؟! لقد جئت شيئًا إمرًا! ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴾ .

قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولىٰ من موسىٰ نسيانًا» قال: وجاء عصفور فنزل علىٰ حَرْف السفينة فنقر في البحر نَقْرةً، أو نقرتين فقال له الخضر: ما عِلمي وعلمُك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان علىٰ

(١) أي: أجرة.

الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغِلمان، فأخذ الخضر رأسَه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسىٰ: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾قال: «وهذه أشد من الأولىٰ» ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ قال: مائل. فقال الخضرُ بيده: ﴿فَأَقَامَهُ﴾فقال موسىٰ: قوم أتيناهم فلم يُطعمونا

ولم يضيِّفونا ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسىٰ كان صَبَرَ حتىٰ يَقصَّ الله علينا من خبرهما»(١).

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ

(١) رواه البخاري (١٢٢، ٤٧٢٥، ٤٧٢٧) ومسلم (٢٣٨٠).

ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾ سؤالٌ بتلطُّف لا علىٰ وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكون سؤالُ المتعلِّم.

وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أي: أصحَبك وأرافقك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ أي: ممَّا علَّمك الله شيئًا، أسترشد به في أمري، من علمٍ نافعٍ وعملٍ صالح.

فعندها ﴿ قَالَ ﴾ الخَضِر لموسىٰ: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أي: أنت لا تقدر أن تصاحبني لما ترىٰ منِّي من الأفعال التي تخالف شريعتك؛ لأنِّي علىٰ عِلْم من عِلْم الله ما عَلَّمَكَهُ الله، وأنت علىٰ عِلْم من عِلْم الله ما علَّمنيه الله، فكلٌّ مِنَّا مكلَّفٌ بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر علىٰ صحبتي.

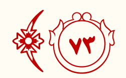
﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ فأنا أعرف أنك ستُنْكِر عليَّ ما أنت معذور فيه، لأنَّك ما اطَّلعتَ علىٰ حِكمته ومصلحته الباطنة التي اطَّلعتُ أنا عليها دونك.

﴿قَالَ﴾ له موسىٰ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: علىٰ ما أرىٰ من أمورك ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾ أي: ولا أخالفك في شيء.

فِعند ذلك شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ أي: ابتداءً ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا﴾ أي: حتىٰ أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ

﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾



يقول تعالىٰ مُخْبِرًا عن موسىٰ وصاحبه وهو الخَضِر: إنَّهما انطلقا لمَّا توافقا واصطحبا، واشترط عليه ألا يسأله عن شيء أنكره حتىٰ يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول -يعني بغير أجرة- تكرِمةً للخَضِر. فلما استقلَّت بهم السفينةُ في البحر، ولجحت أي: دخلت اللُّجَّة، قام الخضر

فخرقها، واستخرج لوحًا من ألواحها ثم رقعها.

فلم يملك موسىٰ عليه السلام نفسه أن قال مُنْكِرًا عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر:

لِدُوا للْمَوت وابْنُوا للخَرَابِ

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ قال مجاهد: منكَرًا.

وقال قتادة: عجبًا.

فعندها قال له الخَضِر مُذَكِّرًا بما تقدَّم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعني وهذا الصنيع فعلتُه قصدًا، وهو من الأمور التي

اشترطتُ معك ألا تُنْكِر عليَّ فيها، لأنَّك لم تُحِط بها خُبرًا، ولها داخلٌ هو مصلحةٌ ولم تعلمه أنت.

﴿قَالَ﴾ أي موسىٰ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي: لا تضيِّق عليَّ وتُشدِّد عليَّ.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾أي: بعد ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ وقد تقدَّم أنَّه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرىٰ، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنَهم وأجملَهم وأوضأَهم فقتله.

فلما شاهد موسىٰ -عليه السلام- هذا أنكره أشدَّ من الأوَّل، وبادر فقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أي صغيرة لم تعمل الحِنْث، ولا حملَتْ إثمًا بعدُ، فقتلْتَه؟! ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي: بغير مستند لقتله ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ أي: ظاهر النكارة.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ فأكَّد أيضًا في التذكار بالشرط الأول؛ فلهذا قال له موسىٰ: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: إن اعترضتُ عليك بشيء بعد هذه المرَّة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرتَ إليَّ مرة بعد مرة.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ

﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مُخْبِرًا عنهما: إنَّهما انطلقا بعد المرَّتين الأوليين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وفي الحديث: «حتَّىٰ إذا أتيا أهلَ قرية لئامًا»[1] أي: بخلاء ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ إسناد الإرادة هاهنا إلىٰ الجدار علىٰ سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٠) ضمن حديث أبي بن كعب الطويل في قصة موسىٰ والخضر.

المحْدَثات بمعنىٰ الميل. والانقضاض هو: السقوط.

وقوله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي: فردَّه إلىٰ حالة الاستقامة وقد تقدَّم في الحديث أنه ردَّه بيديه، ودَعَمَهُ حتىٰ ردَّ مَيْلَه وهذا خارق! فعند ذلك قال موسىٰ له ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ أي: لأجل أنهم لم يُضيِّفونا كان ينبغي ألَّا تعمل لهم مجانًا.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ أي: لأَنَّك شرطتَ عند قتل الغلام أنَّك إنْ سألتني عن شيء بعدها

فلا تصاحبني، فهو فراقُ بيني وبينك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ .

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره علىٰ موسىٰ عليه السلام، وما كان أنكر ظاهرَه، وقد أظهر الله الخضر -عليه السلام- علىٰ باطنه، فقال: إنَّ السفينة إنما خرقتُها لأعيبها؛ لأنَّهم كانوا يَمرُّون بها علىٰ مَلِك من الظَلَمَة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾

صالحة جيِّدة ﴿غَصۡبٗا﴾ فأردتُ أن أعيبها لأردَّه عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابُها المساكين الذين لم يكن لهم شيءٌ ينتفعون به غيرها.

﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾

جاء في الحديث عن ابن عباس، عن أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طُبِع يوم طُبع كافرًا» رواه ابن جرير[1].

(١) في «تفسيره» (١٥/ ٣٥٧). وهو في «صحيح مسلم» (٢٣٨٠) بنحوه ضمن حديث أبي بن كعب الطويل.

ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ أي: يحملهما حُبُّه علىٰ متابعته علىٰ الكفر.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ أي: ولدًا أزكىٰ من هذا، وهما أرحمُ به منه. قاله ابن جريج. وقال قتادة: أبرُّ بوالديه.

وقد جاء أنَّهما بُدِّلا جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أُمُّه حاملًا بغلام مسلم. قاله ابن جُريج.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

في هذه الآية دليلٌ علىٰ إطلاق القرية علىٰ المدينة؛ لأنَّه قال أولًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وقال هاهنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣] ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ

﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]

يعني: مكَّة والطائف.

ومعنىٰ الآية: أنَّ هذا الجدار إنَّما أصلحه لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما.

قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: كان تحته مالٌ مدفونٌ لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فيه دليلٌ علىٰ أن الرجل الصالح يُحْفَظ في ذُرِّيته، وتشملهم

بركةُ عبادته في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلىٰ أعلىٰ درجة في الجَنَّة لتَقَرَّ عينُه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السُنَّة به.

قال سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس: حُفِظا بصلاح أبيهما، ولم يُذْكَر لهما صلاح.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾: هاهنا أسند الإرادة إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأن بلوغهما الحُلُم لا يقدر عليه إلا الله؛ وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ وقال في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، فالله أعلم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾

أي: هذا الذي فعلتُه في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدَي الغلام، وولدَي الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ لكني أُمِرتُ به ووقفتُ عليه، وفيه دلالةٌ لمن قال بنبوة الخَضِر عليه السلام، مع ما تقدَّم من قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

وقال آخرون: كان رسولًا. وقيل بل كان مَلَكًا. نقله الماوردي في تفسيره.

وذهب كثيرون إلىٰ أنَّه لم يكن نبيًّا. بل كان وليًّا. فالله أعلم.

وذكر ابن قتيبة في المعارف أن اسم الخضر بَلْيَا بنُ مَلْكان بن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوحٍ عليه السلام.

قالوا: وكان يُكنىٰ أبا العبَّاس، ويلقَّب بالخَضِر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في تهذيب الأسماء.

وقد ثبت في صحيح البخاري أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنما سُمِّي الخَضِر؛ لأنَّه جَلَسَ علىٰ فَرْوَةٍ، فإذا هي تهتزُّ مِن تحته خضراء»(١).

والمراد بالفروة هاهنا الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات. قاله عبد الرزاق.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: هذا تفسير ما ضِقْتَ به ذَرْعًا، ولم تصبر حتىٰ أُخْبِركَ به ابتداء، ولمَّا أن فسَّره له وبيَّنه ووضَّحه وأزال المشْكِل قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾، وقبل ذلك

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٠٢)، واللفظ برواية ابن حبان (٦٢٢٢) أقرب.

كان الإشكال قويًا ثقيلًا فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخفَّ بالأخف، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلىٰ أعلاه، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ وهو أشقُّ من ذلك، فقابل كُلًّا بما يُناسبه لفظًا ومعنىٰ، والله أعلم.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ ﴿٨٢﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمَّد ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أي: عن خبره.

وقد قدَّمنا أنَّ كفار مكَّة بعثوا إلىٰ أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ، فقالوا: سَلُوه عن رجل طوَّاف في الأرض، وعن فِتيةٍ لا يُدْرىٰ ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف.

وقوله ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أعطيناه مُلكًا عظيمًا مُتَمكِّنًا، فيه من جميع ما يؤتىٰ الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب؛ ولهذا

مَلَكَ المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخَدَمتْه الأُمم من العرب والعجم؛ ولهذا ذَكَرَ بعضهم أنه إنما سمِّي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرنَي الشمس مشرقها ومغربها.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسُدِّي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: سببًا يعني عِلْمًا.

وعن سعيد بن أبي هلال: أنَّ معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إنَّ ذا القرنين كان يربط خيلَه بالثُّريَّا؟ فقال له كعب: إن كنتُ قلتُ ذلك، فإنَّ الله تعالىٰ قال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾.

وهذا الذي أنكره معاوية رضي الله عنه علىٰ كعب الأحبار هو الصواب، والحقُّ مع معاوية في الإنكار؛ فإنَّ معاوية كان يقول عن كعب: "إن كُنَّا لنبلو عليه الكذب" يعني: فيما ينقله، لا أنَّه كان يتعمَّد نقلَ ما ليس في صحيفته، ولكنَّ الشأن في صحيفته: أنها من الإسرائيليات التي

غالبُها مبدَّلٌ مصحَّفٌ محرَّف مُختلَق! ولا حاجة لنا مع خبر الله ورسول الله ﷺ إلىٰ شيء منها بالكُليَّة، فإنَّه دخل منها علىٰ الناس شرٌ كثيرٌ وفسادٌ عريض.

وتأويل كعبٍ قولَ الله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ واستشهاده في ذلك علىٰ ما يجده في صحيفته من أنَّه كان يربط خيله بالثُريّا غيرُ صحيح ولا مطابق؛ فإنَّه لا سبيل للبشر إلىٰ شيء من ذلك، ولا إلىٰ الترقِّي في أسباب السماوات، وقد قال الله في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتۡ

﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النمل:٢٣] أي: مما يؤتىٰ مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يَسَّر الله له الأسباب، أي: الطُرُق والوسائل إلىٰ فتح الأقاليم والرَّسَاتيق والبلاد والأراضي وكَسْر الأعداء، وكَبْت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء ممَّا يحتاج إليه مثله سببًا، والله أعلم.

وفي «المختارة» للحافظ الضياء المقدسي، عن حبيب بن حِمَاز قال: كنتُ عند عليٍّ رضي الله عنه، وسأله رجلٌ عن ذي القرنين: كيف بلغ

المشارق والمغارب؟ فقال سبحان الله، سَخَّر له السحاب، وقَدَّر له الأسباب، وبَسَط له اليد[1].

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: فسلك طريقًا.

(١) «المختارة» (٢/ ٣٢- ح٤٠٩)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٥٧٨) أيضًا، واللفظ فيهما: «وبَسَط له النور».

قال ابن عباس: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ السبب: المنْزِل.

وقال مجاهد: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾: مَنْزِلا وطريقًا ما بين المشرق والمغرب.

وقال قتادة: أي أتبع منازل الأرض ومعالمها.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: فسلك طريقًا حتىٰ وصل إلىٰ أقصىٰ ما يُسْلَك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض.

وأما الوصول إلىٰ مغرب الشمس من السماء فمتعذِّر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أَنَّه سار في الأرض مُدَّةً والشمس تغرب من ورائه فشيءٌ لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم.

وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رأىٰ الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهىٰ إلىٰ ساحله، يراها كأَنَّها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مُثبَتة فيه لا تفارقه.

والحمئة مشتقَّة علىٰ إحدىٰ القراءتين من «الحَمْأة» وهو الطين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنِّي خَـٰلِقُۢ بَشَـرًا مِّن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ﴾ [الحجر:٢٨] أي: طين أملس.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَامِيَةٍ﴾ يعني: حارة. وكذا قال الحسن البصري.

وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب.

قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارةً لمجاورتها وَهَج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل و ﴿حَمِئَةٍ﴾ في ماءٍ وطينٍ أسود.

وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: أُمَّة من الأُمم، ذكروا أنها كانت أُمَّة عظيمة من بني آدم.

وقوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ معنىٰ هذا أنَّ الله تعالىٰ مكَّنه منهم، وحكَّمه فيهم، وأظفره بهم، وخيَّره: إن شاء قتل وسبىٰ، وإن شاء منَّ أو فدىٰ، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله، وبيانه في قوله: ﴿أَمَّا مَن

ظَلَمَ﴾ أي: مَنْ استمرَّ علىٰ كفره وشركه بربه ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ قال قتادة: بالقتل.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ أي: شديدًا بليغًا وجيعًا أليمًا. وفيه إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ﴾ أي: تابَعَنَا علىٰ ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ قال مجاهد: معروفًا.

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾﴾

يقول: ثم سلك طريقًا فسار من مغرب الشمس إلىٰ مطلعها، وكان كلما مرَّ بأَمَّةٍ قهرهم وغلبهم ودعاهم إلىٰ الله عزَّ وجل، فإن أطاعوه وإلا أذلَّهم وأرغم آنافَهم، واستباح أموالَهم وأمتعتَهم، واستخدم من كلِّ أُمَّة ما يستعين به مع جيوشه علىٰ أهل الإقليم المتاخم لهم.

وذُكِر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفًا وستمائة سنة يجوب الأرض طولَها وعرضَها حتىٰ بلغ المشارق والمغارب. ولمَّا انتهىٰ إلىٰ مطلع الشمس من الأرض -كما قال الله تعالىٰ- ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي أُمَّة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: ليس لهم بناء يُكِنُّهم، ولا أشجار تُظِلُّهم وتسترهم من حرِّ الشمس.

قال سعيد بن جبير: كانوا حُمْرًا قِصارًا، مساكنهم الغِيران، أكثرُ معيشتهم من السمك.

وعن الحسن في قوله تعالىٰ: ﴿لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ قال: إن أرضهم لا تحمل البناء.

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أَنَّهم بأرض لا تُنبِت لهم شيئًا، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتىٰ إذا زالت الشمس خرجوا إلىٰ حروثهم ومعايشهم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾ قال مجاهد، والسدي: خُبْراً أي علمًا. أي: نحن مُطَّلعون علىٰ جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفىٰ علينا منها شيء، وإن تفرَّقت أممهم

وتقطَّعت بهم الأرض، فإنه تعالىٰ: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا



يقول تعالىٰ مخبرًا عن ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: ثم سلك طريقًا من مشارق الأرض.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان متناوحان[1]، بينهما ثغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج علىٰ بلاد التُرك، فيعيثون فيهم فسادًا، ويُهْلِكون الحرثَ والنسْل.

ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام، كما ثبت في الصحيحين: «إنَّ الله تعالىٰ يقول: يا آدم، فيقول: لبَّيك وسعديك. فيقول: ابعث بَعْثَ النار. فيقول: وما بَعْثُ النار؟

(١) أي: متقابلان.

فيقول: من كُلِّ ألفٍ تسعُمائةٍ وتسعةٌ وتسعون إلىٰ النار، وواحد إلىٰ الجَنَّة، فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كلُّ ذاتِ حملٍ حملَها، فيقال: إن فيكم أُمَّتينِ ما كانتا في شيءٍ إلا كثَّرَتاه: يأجوج ومأجوج»[١].

وقد حكىٰ النووي رحمه الله في «شرح مسلم» عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خُلِقوا من مَنِيٍّ خَرَج من آدم فاختلط بالتراب

(١) البخاري (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢)، ولفظهما: «أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا، ومنكم رجل». وأما قوله: «إنَّ فيكم أُمَّتين ما كانتا مع شيءٍ إلا كثَّرَتاه: يأجوج ومأجوج» فعند أحمد (١٩٩٠١) والترمذي (٣١٦٩) من حديث عمران بن حُصَين بنحوه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فخُلِقوا من ذلك، فعلىٰ هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء! وهذا قولٌ غريب جدًا، ثمَّ لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد هاهنا علىٰ ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لِما عندهم من الأحاديث المفتعلة، والله أعلم.

وقد ذكر ابن جرير هاهنا عن وهب بن مُنبِّه أثرًا طويلًا عجيبًا في سَيْر ذي القرنين، وبنائه السدَّ وكيفية ما جرىٰ له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم، وطولهم وقِصَر

بعضهم. وروىٰ ابن أبي حاتم أحاديث غريبة في ذلك لا تصحُّ أسانيدها، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لاستعجام كلامهم وبُعْدِهم عن الناس.

﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾

قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس: ﴿خَرْجًا﴾: أي أجرًا عظيمًا، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالًا يُعطونه إياه، حتىٰ يجعل بينهم وبينهم سدًّا. فقال ذو القرنين بِعِفَّةٍ

وديانةٍ وصلاحٍ وقصدٍ للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خيرٌ لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل:٣٦] وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خيرٌ من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعملكم وآلات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ والزُبَر: جمع زُبْرَة، وهي القِطْعة

منه، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، وهي كاللَّبِنة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أي: وضع بعضه علىٰ بعض من الأساس حتىٰ إذا حاذىٰ به رؤوس الجبلين طولًا وعرضًا ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ أي: أجَّج عليه النار حتىٰ صار كلُّه نارًا ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدي: هو النحاس. وزاد بعضهم: المُذَاب، ويستشهد بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾ [سبأ: ١٢].

وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه، ووجَّه معه جيشًا سرية، لينظروا إلىٰ السدِّ ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا، فتوصَّلوا من بلاد إلىٰ بلاد، ومن مُلْك إلىٰ مُلْك، حتىٰ وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه بابًا عظيمًا، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللَّبِن والعملِ في برج هناك، وأن عنده حرسًا من الملوك المتاخمة له، وأنه منيفٌ عالٍ شاهق، لا يُستطاع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلىٰ بلادهم،

وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالًا وعجائب.

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن يأجوج ومأجوج أَنَّهم ما قدروا علىٰ أن يصعدوا فوق هذا السَدِّ ولا قدروا علىٰ نقبه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نَقْبِه قابل كلًّا بما يناسبه فقال:

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾

وهذا دليلٌ علىٰ أنهم لم يقدروا علىٰ نقبه، ولا علىٰ شيء منه.

ويؤكد ما قلناه من أنهم لم يتمكَّنوا من نَقْبِه ولا نقبِ شيءٍ منه قولُ الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن زينب بنت أبي سلمة، عن حَبِيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن أُمِّها أُمِّ حبيبة، عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ -قال سفيان: أربعُ نسوةٍ- قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محْمَرٌّ وجهُه، وهو يقول: «لا إله إلا الله! ويل

للعرب من شرٍّ قد اقترب! فُتِحَ اليومَ من رَدْم يأجوج ومأجوج مثلُ هذا»، وحَلَّق. قلت: يا رسول الله، أنَهلِك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كَثُرَ الخَبَث»[1].

هذا حديث صحيح، اتَّفق البخاري ومسلم علىٰ إخراجه[2] من حديث الزهري، ولكنْ سقط في رواية البخاري ذكرُ حبيبة، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإسناد، منها: رواية الزهري عن عروة،

(١) «مسند أحمد» (٢٧٤١٣).

(٢) البخاري (٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥) ومسلم (٢٨٨٠).

وهما تابعيَّان. ومنها: اجتماع أربع نسوة في سنده، كلهنَّ يروي بعضُهن عن بعض، ثم كلٌّ منهنَّ صحابية، ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان، رضي الله عنهن.

وقد روي نحو هذا عن أبي هريرة أيضًا، عن النبي ﷺ أنه قال: «فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وعقد التسعين[1]. أخرجه البخاري ومسلم[2].

(١) عقد التسعين: أي جعل طرف إصبعه السبابة اليمنىٰ في أصلها وضمَّها ضمًّا محكمًا حتىٰ انطوت عقدتاها. وهو أضيق من التحليق المذكور في الحديث السابق.

(٢) البخاري (٣٣٤٧) ومسلم (٢٨٨١).

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: لمَّا بناه ذو القرنين ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلًا يمنعهم من العَيْث في الأرض والفساد. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: ساواه بالأرض.

تقول العرب: ناقة دَكَّاء: إذا كان ظهرها مستويًا لا سنام لها. وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣] أي: مساويًا للأرض.

﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ أي: كائنًا لا محالة.

وقوله: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ أي: الناس يومئذٍ أي: يوم يُدَكُّ هذا السدُّ ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويُفْسِدون علىٰ الناس أموالَهم ويُتلِفُون أشياءَهم.

وهكذا قال السُدِّي في قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ قال: ذاك حين يخرجون علىٰ الناس.

وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه -إن شاء الله تعالىٰ- عند قوله:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ ﴾

[الأنبياء:٩٧،٩٦] .

وهكذا قال هاهنا: ﴿بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ علىٰ إِثْر ذلك ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ .

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: الصور كما جاء في الحديث: «قرن يُنْفخ فيه»[1]، والذي يَنْفُخ فيه إسرافيل عليه السلام، والأحاديث فيه كثيرة.

وقوله ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أي: أحضرنا الجميع للحساب ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩،٥٠] ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ

---

(١) أخرجه أحمد (٦٨٠٥) وأبو داود (٤٧٤٢) والترمذي (٢٤٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو. قال الترمذي حديث حسن.

سَمۡعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عمَّا يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يَعْرِض عليهم جهنَّم، أي: يُبْرزها لهم ويُظهِرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهمِّ والحزن لهم.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتىٰ بجهنَّمَ تُقاد يومَ القيامة

بسبعين ألفَ زِمامٍ، مع كل زِمام سبعون ألفَ ملك يجرُّونها»(١).

ثم قال مخبرًا عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ **أي: تعامَوا وتغافلوا وتصامُّوا عن قبول الهدىٰ واتِّباع الحق، كما قال تعالىٰ:** ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف:٣٦] **وقال هاهنا:** ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ **أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه.**

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٤٢).

ثم قال ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ أي: اعتقدوا أنهم يصحُّ لهم ذلك، وينتفعون بذلك؟ ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم:٨٢] ولهذا أخبر أنَّه قد أعدَّ لهم جهنَّم يوم القيامة منزلًا.

﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾

روىٰ البخاري عن مُصْعَب قال: سألت أبي -يعني سعد بن أبي وقاص-: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ أهم الحَرُورية؟ قال: لا هم اليهود والنصارىٰ، أما اليهود فكذَّبوا محمدًا ﷺ، وأما النصارىٰ كفروا بالجنَّة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧]. وكان سعد رضي الله عنه يسمِّيهم الفاسقين(١).

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٢٨).

وقال علي بن أبي طالب وغير واحد: هم الحرورية.

ومعنىٰ هذا عن علي رضي الله عنه: أنَّ هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارىٰ وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء علىٰ الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعمُّ من هذا؛ فإنَّ هذه الآية مكِّية قبل خِطاب اليهود والنصارىٰ وقبل وجود الخوارج بالكُلِّية، وإنما هي عامَّة في كل من عَبَدَ الله علىٰ غير طريقة مَرْضيَّة يحسب أنه مُصيب فيها، وأنَّ عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال

تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤] وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٣٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي: نُخبِركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ثم فسَّرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: عملوا أعمالًا باطلة علىٰ غير شريعة مشروعة مرضيَّة

مقبولة، ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ أي: يعتقدون أنَّهم علىٰ شيء، وأنَّهم مقبولون محبوبون.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ أي: جحدوا آياتِ الله في الدنيا، وبراهينَه التي أقام علىٰ وحدانيته وصِدْق رسله، وكذَّبوا بالدار الآخرة ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا﴾ أي: لا نُثَقِّل موازينهم؛ لأنها خاليةٌ عن الخير.

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّه لَيأتي الرجلُ العظيمُ السمينُ يومَ القيامة، لا

يَزِن عند الله جناحَ بعوضة» وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»(١).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: إنما جازيناهم بهذا الجزاء: جهنَّم، بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوًا، استهزؤوا بهم، وكذَّبوهم أشدَّ التكذيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥).

يُخْبر تعالىٰ عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدَّقوهم فيما جاؤوا به بأن لهم جَنَّات الفردوس. قال قتادة: الفردوس: ربوة الجَنَّة وأوسطها وأفضلها.

وفي الصحيحين: «إذا سألتم اللهَ الجنةَ فاسألوه الفردوس، فإنَّه أعلىٰ الجنة وأوسطُ الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة»[1].

وقوله: ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافة، فإن النُزُل هو الضيافة.

---

(١) هو في البخاري (٢٧٩٠) فقط.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبدًا ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ أي: لا يختارون غيرها، ولا يُحبُّون سواها، كما قال الشاعر:

فَحَلَّتْ سُوَيدا القَلْبِ لا أنَا بَاغيًا
سـواها ولا عَنْ حُبّها أتَحوّلُ

وفي قوله: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ تنبيهٌ علىٰ رغبتهم فيها، وحُبِّهم لها، مع أنه قد يُتَوهَّم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنَّه يَسْأَمُه أو يَمَلُّه، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا

يختارون عن مقامهم ذلك متحوَّلًا ولا انتقالًا ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلًا.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾

يقول تعالىٰ: قل يا محمَّد: لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي تُكْتَب به كلمات ربّي وحكمه وآياته الدالَّة عليه ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ أي: لفرغ البحر قبل أن يَفْرُغ من كتابة ذلك ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلمَّ جرًّا، بحور تُمِدُّه ويُكْتب بها، لما نَفِدَتْ كلماتُ الله، كما

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧] .

قال الربيع بن أنس: إنَّ مَثَلَ عِلْمِ العباد كلِّهم في عِلْمِ الله كقطرة من ماء البحور كلِّها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ يقول: لو كان البحر مِدادًا لكلمات الله، والشجرُ كلُّه أقلام، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يُفنيها شيء؛ لأن

أحدًا لا يستطيع أن يقدُرَ قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، حتىٰ يكون هو الذي يُثني علىٰ نفسه، إنَّ ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إنَّ مَثَلَ نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة، كحبَّةٍ من خردل في خلال الأرض كلِّها.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

يقول لرسوله محمَّد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذِّبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠

﴿بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ فمن زعم أنِّي كاذبٌ فليأت بمثل ما جئتُ به، فإنِّي لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عمَّا سألتم من قِصَّة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابقٌ في نفس الأمر، لولا ما أطْلعني اللهُ عليه، وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾ الذي أدعوكم إلىٰ عبادته، ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لا شريك له ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ ما كان موافقًا لشرع الله ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ وهو الذي يُراد به وجه الله وحده لا

شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبَّل. لابدَّ أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، يرويه عن ربِّه عزَّ وجلَّ أنَّه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملًا أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو لِلَّذي أشرك»(١).

ورَوَىٰ عن محمود بن لبيد أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم الشركُ الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول

---

(١) «مسند أحمد» (٧٩٩٩). وأخرجه أيضًا ابن خزيمة (٩٣٨) وابن حبان (٣٩٥). وهو عند مسلم (٢٩٨٥) بنحوه.

الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزىٰ الناس بأعمالهم: اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تُراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟!»[(١)].

ورَوَىٰ عن أبي سعيد بن أبي فَضالة الأنصاري أنَّه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا جَمَعَ اللهُ الأولين والآخرين ليوم القيامة ليومٍ لا ريبٍ فيه، نادىٰ منادٍ: من كان أشرك في عملٍ عَمِلَه لله أحدًا، فليطلب ثوابَه من عند غير الله، فإنَّ الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك»[(٢)].

---

(١) «مسند أحمد» (٢٣٦٣٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجاله رجال الصحيح.

(٢) «مسند أحمد» (١٧٨٨٨). وابن ماجه (٤٢٠٣) وابن حبان (٤٠٤).

ورَوَىٰ عن عمرو بن مُرَّة قال: سمعت رجلًا في بيت أبي عبيدة؛ أنَّه سمع عبد الله بن عمرو يحدِّث ابنَ عمر أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من سَمَّع الناس بعمله سَمَّع الله به سامِعَ خلقه، وصغَّره وحقَّره» قال: فذرفت عينا عبدالله[1].

هذا آخرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الكهف

وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

***

تم بحمد الله

(١) «مسند أحمد» (٦٥٠٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجال أحمد رجال الصحيح.